توفيق زياد

الباشوات والبكوات والحمير

ـ ١ ـ

جمع السلطان مجلسه ، ثم قال مخاطبا :

« بودي ان اعرف من يعرف كم عدد الباشوات والبكوات في بلادنا » ..

والحق يقال ان السلطان فاجأ وزراءه بهذا السؤال غير المتوقع. راحوا كلهم ينظرون الواحد في الاخر باستغراب وصمت وواصل السلطان كلامه :

ـ « لا احد يعرف .. هه ؟؟ ولا احد يعرف من يعرف ؟؟ »

وعندما لم يتلق للمرة الثانية جوابا على سؤاله زفر زفرة طويلة، ومسح لحيته الحمراء من الحناء وقال :

ـ هذا امر يحيرني منذ مدة . كيفما تحركت في القصرومختلف الوزارات والاماكن ، وكيفما تنقلت في نواحي السلطنة ، التقي بعدد لا يحصى من حملة الالقاب . اسأل فيقولون لي هذا فلان باشا او فلان بك . اسأل : لماذا ؟! فيقولون ، هذا باشا لانه عمل كذا ، وذاك بك لانه عمل كذا وهذا كذا لانه كذا ، وذاك كذا لانه اهدانا موسع عشر قرى ، وذاك لانه قضى على عدو لنا ، وهذا لاننا تزوجنا ابنته وذاك لان ابنته تزوجتنا .. وهكذا » .

وتشجع وزيره الاول :

ـ هذا كله من نعمك يا مولاي..

ـ حسنا ..حسنا..من نعمنا وافضالنا ، وليس لنا اعتراض. ولكني اريد فقط ان اعرف عددهم .. فقط .. عددهم . نحن عندنا قيودات بهذا ، اليس كذلك ؟؟

ـ نعم يا مولاي .

ـ فلتأمر كتابك اذن ، ان يفحصوا قيوداتهم . ولتحضر لي عددهم وقائمة بهم .

ـ وانفض مجلس السلطان وانعقد من جديد بعد اسبوع . وتكلم الوزير الاول . قال :

ـ فتشنا في كل القيودات يامولاي. ولكن عدد المسجلين فيها من اصحاب الالقاب قليل . كذلك اتضح ان القيودات عتيقة الى ما قبل عدة سنوات . وكل الذين انعمت عليهم في السنوات الاخيرة بهذه الالقاب السنية لم تدخل اسماؤهم في القيودات .

ـ « وكيف . .؟؟ » . قال السلطانوهو يطوي عنقه ، ويرفع حاجبيه مستغربا ..

ـ سألتهم عن السبب يامولاي، فقالوا ان مولانا كانينعم على رعاياه المخلصين والمتنفذين بتلك الالقاب فيسرعة شديدة .اقصد بكثرة وكيفا اتفق لدرجة انهم لم يستطيعوا ان يجدوا الوقت الكافي ليلحقوا به ، ويدخلوا اسماء المنعم عليهم في قيوداتهم ..

وصمت الوزير الاول عندما رأى حضرة السلطان يتنحنح وغير جلسته في كرسيه ، ثم واصل كلامه :

ـ وهكذا يا مولاي توقف الكتاب عن تسجيل انعامات مولانا المنهالة بلا حساب ، لانهم يئسوا من امكانية ذلك ..

وساد صمت طويل في المجلس قطعه صوت الوزير :

ـ اجل يا مولانا . ونحن لا نستطيع ان نقدم مثل تلك اللائحة من الذاكرة .

ومن جديد ساد صمت طويل في المجلس لم يقطعه غير صوت مولانا المستغرق في التفكير ..

« الرأي راي مولانا » ـ قال الوزير الاول وهو يقف امام مولانا، منتظراً حركة من شفتيه .

وانفض مجلس السلطان ذلك اليوم من غير ان يهتدي هو او اي احد من مجلسه الفطن ، الى طريقة يمكن بها معرفة عدد الباشوات والبكوات في السلطنة العامرة .

ـ ٢ ـ

واحتاج الامر الى اسبوع كامل من حك الدماغ ،حتى اهتدى السلطان الفطين الى طريقة لا تخيب . ارسل يجمع مجلسه وبعد ان التأم ، ابلغهم :

ـ لقد اهتديت الى طريقة نحصل بواسطتها على ادق حساب ، حتى اخر باشا واخر بك ..

وهتف الوزراء بصوت واحد . كل واحد منهم رفع صوته بمقدار اهمية وزارته :

ـ هيه .. سلمت راسك يا مولانا .. كيف ؟؟

ـ ان نعين يوما ندعو فيه جميع الباشوات والبكوات في السلطنة الى الحضور الى عاصمة ملكنا ، ونقف نحن على شرفة

قصرنا ، ثم يبدأ موكب الباشوات البكوات في المرر من امام شرفة القصر .وهكذا نعدهم » .

قال السلطان ذلك وهو يفرك كفيه سرورا ويتطلع في عيون وزرائه مستكشفا اثر ذكائه فيهم .

والحق يقال انه ما كان بامكان رأس غير سلطاني ان تنبت فيه مثل هذه الفكرة . وكان اثر ذلك علىوزرائه كبيرا حتى ندت عنهم اهات الدهشة والاعجاب .

ولكن السلطان فرك يديه ثانية واردف :

ـ نامر الباشوات ان يأتوا على ظهور البغال والبكوات على ظهور الحمير . في البداية يمر امامنا موكب الباشوات ، فنعدهم . ثم موكب البكوات فنعدهم . وهكذا نحل هذه المعضلة .

وصمت السلطان وهو يفرك مرة اخرى كفيه سرورا ، ويتطلع في عيون وزرائه مستكشفا اثر ذكائه فيهم . ثم قال لوزيره الاول :

ـ عليك ان تصدر حالا الاوامر اللازمة .

ـ ٣ ـ

وهكذا كان .

في فجر اليوم المعين ، تجمع باشوات المملكة وبكواتها . كل باشا وبغله . وكل بك وحماره . ووقف السلطان ، وحوله وزراؤه وحاشيته المقربة على شرفة القصر ، معلنا بدء الاستعراض الكبير. وبدأ موكب الباشوات ، صفا من البغال وراء صف . ولتسهيل العد كان كل صف يتكون من خمسين . واستمر الموكب صفا وراءصف وساعة بعد ساعة ، والكتاب يسجلون ويحسبون .. ويجمعون ويطرحون ، حتى انتهى ..

ثم بدأ موكب البكوات : صفا من الحمير وراء صف . كل صف يتكون من مائة واتصل الموكب ساعةبعدساعة حتى وقت متأخر من النهار .

وحينما مر الصف الاخير كان السلطان وحاشيته يتنفسون الصعداء .. اما الكتاب فكان عرقهم يزرب من شدة الجهد وقد تكسرت اقلامهم وانتهت اوراقهم . كان غبش المساء قد بدأ ينتشر ، وكان الكل تعبا ولكن مرتاحا لانتهاء تلك المهمة المعقدة.

ولكن فجأة بدأ موكب عظيم من المشاة يتدفق صفا وراء صفاامام شرفة قصر السلطان ، الذيفتح فمه دهشة وقد هاله الامر وهاله ان ذلك الموكب كان بلا اخر . اما الكتاب فقد نظروا الى الامر كما ينظرون الى كارثة مفاجئة ، خصوصا وقد بدأ غبش المساء يتحول الى عتمة .

وتطلع السلطان في وجوه وزرائه مستفسرا حتى استقرت عيناه على وجه وزيره الاول :

ـ ما هذا ..؟!

ـ يا مولاي ..ـحاولالوزير الاول ان يتكلم ..

ـ قلنا عن الباشوات والبكوات فقط ..

ـ يامولاي ... ـ حاول الوزير الاول ثانية ان يتكلم ..

ـ ماذا ..؟! فل من هؤلاء ؟! ـ قال السلطان وهو في قمة استغرابه ..

وتقلب الوزير الاول على ارتباكه :

ـ هؤلاء ايضا بكوات يامولانا . ولكننا لم نجد في البلاد حميرا على عددهم ..

واحتاج السلطان الى هنيهة حتى يلتقط كلام وزيره ، ثم فقس في الضحك . وظل يضحك ويضحك ، حتى انقلب على قفاه وهو يرقص رجليه في الهواء من شدة الضحك .

ولم يملك وزراءه الا ان يصنعوا مثله ...

عن جريدة « الاتحاد » بحيفا

توفيق يوسف عواد

من الرواية الى الشعر

قوافل الزمان

أو

قصائد البيتين

مع اربع عشرة لوحة الرسام حسين ماضي

واسطوانتين بصوت الشاعر يلقي قصائده

ترافقه موسيقى اوليد غلمية

تحفة فنية صدرت حديثا عن

« دار بدران » للنشر ـ بيروت